

أَلْهَمُ أُسُسَ النَّظَرِيَّةِ التَّوْلِيدِيَّةِ التَّحْوِيلِيَّةِ.

أ. دَخِير الطَّيِّب

جامعة وهران (1)

أ - البنية العميقة Deep Structure والبنية السطحية Surface Structure

تولّد عند تشومسكي مفهوم آخر له ارتباط وثيق بالكفاءة والأداء، فلا بدّ أن يكون لدى المتكلّم معرفة بالقواعد الضّمّنية أو الكامنة التي توجّه أدائه، وهي أيضاً تشكّل الأصول اللسانية الأولى للتركيب اللغوي الذي يقوم بتشكيله حسب معايير معروفة لدى المتكلّم (الكفاءة)، وقد أطلق على التركيب الذي يشتمل على كلّ الوحدات والعلاقات الضرورية لشرح المعنى الأولي اسم البنية العميقة.

أمّا الجملة التي يُخرجها المتكلّم فهي صورة مقصودة من التركيب ظهرت لتؤدي المعنى المراد فأطلق عليها اسم البنية السطحية. (1) فالعميقة تمثّل الشكل الفكري الداخلي للغة، والسطحية تمثّل الشكل الفيزيقي الخارجي لها، وترتبط البنيان معاً بعمليات عقلية محدّدة بقواعد تحويلية؛ إذ إنّ في كلّ لغة اتصالاً من نوع ما بين الصوت والمعنى. (2)

وقد أوضح جورج موانان الفروق بين البنية العميقة والبنية السطحية، فرأى أنّ الأولى هي الأساس البنائي المجرد الذي يُحدّد الجانب المعنوي للجملة وهو موجود في الدّهن حين تُرسل الجملة أو تُتلّق بواسطة الرموز المجردة، أمّا الثانية فهي تنظيم الجملة كظاهرة مادية تُنتج من خلال سلسلة من العمليات الشّكلية (التحويلات النحوية). (3).

ووضّح فولر (Fowler) حدود عمل كلّ بنية فذكر أنّ البنية العميقة تتّصل بالمعنى، والبنية السطحية تتّصل بنظام العناصر والصوت. ومن ثمّ فالبنية العميقة عبارة عن معانٍ مجردة مركّبة لا يمكن نطقها إلّا إذا تحوّلت إلى بنية سطحية. (4).

وتدّعي النّظرية التوليدية التحويلية بأنّه ليس هناك تطابق - بالضرورة - بين التركيب السطحي والعميق.

فإذا قلنا مثلاً: الدّجاجة جاهزة للأكل، فالشكل واحدٌ متمثّلٌ في هذا التركيب، ولكنّ المعنى المُستخلص قد يكون مختلفاً؛ لأنّ الدّجاجة يمكن أن تكون في وضع الفاعل (جاهزة لأن تأكل)، أو أن تكون في وضع المفعول به (جاهزة لأن تُؤكل). والمسئول عن تنظيم العلاقات بين التركيب ومعناه هو التحويل الذي يهدف إلى الوصول بالجملة إلى أفضل وضْع للتعبير عن المعنى المقصود.

أمّا الجملة من مثل:

" زيارة الأصدقاء تبعث على السرور"، تحمل معنيين: زيارتي الأصدقاء تبعث على السرور، وزيارة الأصدقاء لي تبعث على السرور، ومثل ذلك من الإنجليزية أيضاً:
We Fed her dog bones.

فإنّ تركيب الجملة تحتل أن يكون تركيبها:

We Fed her (dog bones).

به (جاهزة لأن تُؤكل). والمسئول عن تنظيم العلاقات بين التركيب ومعناه هو التحويل الذي يهدف إلى الوصول بالجملة إلى أفضل وضْع للتعبير عن المعنى المقصود.

أمّا الجملة من مثل:

" زيارة الأصدقاء تبعث على السرور"، تحمل معنيين: زيارتي الأصدقاء تبعث على السرور، وزيارة الأصدقاء لي تبعث على السرور، ومثل ذلك من الإنجليزية أيضاً:
We Fed her dog bones.

فإنّ تركيب الجملة تحتل أن يكون تركيبها:

We Fed her dog (bones) أو We Fed her (dog bones).

لذا، يمكن القول بأنّ البنية العميقة تُشكّل إحدى مُدخلات النظام اللساني الأصلية في حين أنّ البنية السطحية تُشكّل إحدى مُخرجاته الرئيسة. فلا تُفهم المخرجات إلاّ إذا عُرِفَت المُدخلات (الجمل التّواة والتركيب الأولي لمحتوياتها).(5)

وقد جاء تحديد هاتين البنيتين انطلاقاً من النظر إلى أنّ اللغة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالعمليات العقلية الأولى.

يقول تشومسكي: « إنّ دراسة المظهر الخلاق في استخدام اللغة تطوّر من فرضية مؤدّاه أن اللغة والعمليات العقلية متطابقة على الصّعيد الواقعي، فاللغة تزوّد التّعبيرات الحرّة في الفكر والشعور بالمعاني الأولية لتوظيفها في التّصور الخلاق. »(6).

وقد أكّد هاريس أنّ الإنسان عندما يتكلّم فإنّ خطابه ينبع من طاقة أو دافع روحيّ (المدركات الحسيّة والعمليات الإرادية) ، وكلّها تدفع إلى عمل عقلي أو عاطفي. لذا فإنّ الأساس الذي يُبنى عليه التحليل الجملّي يتأتّى في حقيقته من تحليل معيّن للعمليات العقلية التي تكمن خلفه.(7)

ومن تتبّع التّميّز الأساسي بين الجسم والعقل فإنّ اللسانيات الديكارتية تفترض أنّ للغة مظهرين متميّزين: أحدهما يدرس الرّمز اللغوي من ناحية صوتيّة، والثاني يستحضر اللغة من ناحية دلاليّة، وبمعنى آخر، فإنّ للغة مظهراً داخلياً وآخر خارجياً، الدّاخلي يعبر عن المعنى والخارجي يهتم بالشكل.

وتتميّز البنية العميقة من السطحية بأنّ العميقة – فوق ما ذكر – كامنة ولا تُوضّح، ولكنّها تُستحضر في الدّهن.

وقد استخلص التّحويليون أنّ البنية العميقة التي تهتم بالمعنى هي عاملة لكلّ اللغات، إذ هي انعكاس بسيط لشكل من أشكال العقل، وما يختلف في هذه اللغات هو القواعد التحويلية التي تنقل الجملة من عميقة إلى سطحية.(8).

ب - الكفاءة (compétence) والأداء (Performance).

كان من تأثر تشومسكي بالأفكار التي شاعت في أوساط الباحثين في اللسانيات مظهران رئيسان حدّدا موقفه من هذين المفهومين، الكفاءة والأداء.

فقد ذهب دي سوسير إلى أنّ اللسان نتاج اجتماعي والكلام مظهر فردي يغترف منه، وذهب السلوكيون إلى أن اللغة في حد ذاتها استجابة لحافز خارجي، وتنتج من ثم من اتساق المعطيات المادية والمكونات التي تشكل في مجموعها السياق الكلامي للحدث المعين.

وأيد تشومسكي الرؤية الديكارتية التي ميّزت الإنسان بلغته التي تتأتى من غريزة فطرية فيه، وليس المقصود من اللغة أن يكرّر المتكلم أو يحاكي ما يسمعه، وإنما هي معرفة تكوّنت لدى المتكلم من مجموع التجارب اللغوية والمواقف الحقيقية التي تتمثل في مئات بل آلاف الجمل التي يقابلها المتكلم في حياته. (9)

ومن هنا كوّن لمفهوم الكفاءة سماتٍ مُميّزة؛ إذ عرّف الكفاءة بأنها القدرة على إنتاج جمل لا يكون سمعها من قبل، وهي معرفة ضمنية بالقواعد التي تقوم بعملين أساسيين:

أولهما: إنتاج الجمل، بل العدد غير المتناهي من الجمل.

و ثانيهما: الحكم على الجمل المُنتجة بالفعل، نحوية أو غير نحوية. (10)

فالكفاءة بهذا المفهوم نظام يحكم الكلام، ومعيّار يُصدّر عليه أحكامه. وهي تخصّ المتكلم؛ لأنها ملكة شعورية تُجسّد المليّة الآنية التي يؤدّيها المتكلم.

أمّا الأداء فهو تلك الأصوات التي يُصدرها المتكلم بالفعل، وهو سلوك ينبعث في هدي من القواعد الكامنة، على الرغم من أنّه يتأثر بعوامل عدّة يتصل بعضها باللغة ويتصل بعضها الآخر بالمتكلم نفسه، ولكنها مع ذلك متجددة متنامية، تبدأ منذ الطفولة؛ إذ إنّ الطفل الذي يتعلّم اللغة يكون قد كوّن لنفسه قواعد معيّنة خلال ملاحظة الجمل

النحوية وغير النحوية، فهذه القواعد تُعدُّ العنصرَ الرئيس في سلوك كلِّ من المتحدثِ والسامع. (11) ومن ثمَّ فإنَّ القدرة على إنتاج الجمل ترتبط بالإبداعية التي هي ظاهرة يمتاز بها الإنسان بصورة طبيعية. (12)

وليس من الضروري أن يكون الأداء متمشياً مع الكفاءة؛ لأننا كثيراً ما ننتج جملاً قد نعدّها غير مقبولة إذا نظرنا إليها في ضوء كفاءتنا. فقد بدأ بدايةً خاطئة، فبدأ الجملة بطريقة ونختمها بأخرى. كل هذا جزءٌ من الأداء، ولكن الكفاءة هي النظام النمذجي الذي تعتمد عليه مهارتنا اللغوية.

وتتَّخذُ القواعد الضمنية سمة الثبات إلى حدٍّ ما ، أمّا الأداء فهو متغيّر، ممّا يدفع إلى أن تُفترض معايير لتقويم هذا الأداء وميِّز صحِّحه من سقيمه (13)، فارتبط بهذه الحاجة أمرٌ في غاية الأهمية:

– الحدس اللساني (Intuition)، وهو التمثُّل العقلي لقواعد اللغة، وهو مظهرٌ من مظاهر التأثّر بعلم النفس، ولكنّه أثّر لم يتكئ عليه تشومسكي كثيراً، بل أخضعه لتجارب عملية للتحقُّق من مدى فاعليته. (14)

ولمّا كان الحدس اللساني يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالقدرة على إنتاج الجمل وفهمها وتمييزها، فهو يُعدُّ من قبيل الاعتماد على مهارة الفرد اللسانية، وهذا يُعدُّ أيضاً اهتماماً خاصاً بالمتكلِّم نفسه أكثر من الظروف التي تحيط به. (15)

ويمكن تصور العلاقة التي تربط البنية السطحية والعميقة بقواعد التحويل كما هو في المخطط الآتي: (16)

ويلاحظ كذلك أنّه لا يمكن أن نفصل أيّاً من المفاهيم التي انبثقت عن الفكر الذي قامت عليه التوليدية التحويلية، فهي مترابطة ترابطاً عضوياً يصعب فصله.

مُدخلات. مُخرجات.

وقد حاول عددٌ من الباحثين العرب المحدثين الإفادةً من مُعطيات هذه التّظريّة فيمجال اللغة العربيّة، فكانت لهم تصوّرات خاصّة متنوّعة.

والناظر في هذه الأسس يدرك أنّ تشومسكي كسابقه قد أقام نظريته على الازدواجية، مثل ماهو في اللسان والكلام، البنية العميقة والبنية السطحية، الكفاءة والأداء، الجانب العقلي والجانب الآلي.....

ج - الجانب الدلالي في نظرية تشومسكي اللسانية.

كان جانب المعنى موضع جدلٍ كبيرٍ عند اللغويين على مرّ العصور لما له من أهميّة في الاتّصال اللغوي وأداء اللغة وظيفتها الساس في الفهم والإفهام.(17)

وقد اعتنى بدراسة المعنى فلاسفة اليونان والرّومان، وعلماء اللغة والمتكلّمون العرب في عصورهم المختلفة، ولكنّ هذا المستوى الدلالي ظهر كعلم مميّز في أواسط القرن التاسع عشر، وكان للعالم البولندي تروبتسكوي (Troubetzkoy) نظرية علمية في وظيفة اللغة في مواقف الاتّصال الإنساني المختلفة.(18).

وجاء سوسير وبلومفيلد بنظريات لغوية ومفاهيم لسانية عُدت من دعائم الدّراسات اللغوية المعاصرة، وأولت الدّلالة عناية نظرية لم تعادل اهتمامهما بالتركيب الذي ميز اغلب دراسات اللغويين في تلكم الأوقات، إذ اعترف بلومفيلد بأنّ المعاني أضعف نقطة في دراسة اللغة، وستبقى كذلك حتّى تتقدّم المعرفة الإنسانية تقدّمًا أبعد من وضعها الرّاهن.(19).

ولم يكن للمعنى في المدارس البنيوية التي تلت بلومفيلد حظٌّ أوفر من السابق، فقد انصرف اللغويون إلى دراسة التّراكيب والعلاقات التي تربط مكوّنات الجمل ربطاً يؤدّي إلى معايير السلامة التركيبيّة التي فرضتها القواعد الضّمينية الكامنة. ولم يُشر

تشومسكي إلى المكوّن الدلالي في منهجه التركيبي 1975م، لاعتقاده بضعف قدرة المعيار الدلالي على تحديد ما هو نحوي وما هو غير نحوي.

و واكب تطور الجانب الدلالي تطور النظرية التوليدية التحويلية، فتولّى اللسانيان: كاتز وفودر (Fodor -- Katz) 1963م تطوير نظرية تحليلية تقوم بتحليل معاني الكلمات تحليلاً يُظهر عناصرها الأولية، وكانت هذه النظرية أساساً للنظر الدلالي التركيبي في النحو التوليدي التحويلي (20).

ولكنّها، مع ذلك، لم تربط التركيب بالدلالة ربطاً عضوياً متكاملًا، وهي قضية تنبه إليها تشومسكي عندما طور نظريته 1965م بتطوير القواعد التي تتحول في ضوئها البنى العميقة إلى السطحية في هدي من المعنى. (21)

ولم تُغنِ هذه المحاولات طموح كثير من اللغويين التحويليين، وبذل تشومسكي جهوداً كبيرة لبسط قواعد نظريته فاقترح الفرضية المعجمية 1970م، والفرضية التفسيرية 1971م، وفرضية البنية العقلية الذهنية المستقلة التي طمح منها إلى الوصول إلى نظام متكامل لدلالات المفردات وطرق اقترانها لتكون جملاً ذات معنى، اعتماداً على أنّ هذه القواعد تستغلّ المعطيات الصوتية والصرفية والتحويلية في تحويل عناصرها إلى جملٍ مُختلفة المبنى مُتشابهة المعنى. (22)

واتخذَ الاهتمامُ بالمعنى صوراً ومناهجَ متباينة انطلقت من النظريات المختلفة التي تبناها اللسانيون في السنوات المتعاقبة. ومن ذلك النظرية الإشارية والنظرية التصورية والنظرية السلوكية ونظرية السياق ونظرية الحقول الدلالية والنظرية التحليلية. (23) ويشكّل هذا التطوّر انعطافاً في الدرس اللساني المعاصر نحو المعنى، وهو يذكّرنا بما كان من اهتمام النحاة العرب القدامى بالشكل، حتّى إنهم غالوا في هذه النظرية حتّى رأوا أنّ التحوّل علمٌ حركات الأواخر، وبرزت من بين هذه الآراء ومضاتٌ ترنو إلى ربط الشكل والمعنى،

وتُوجَّه مصطلحات النحو ومسائله ووجهة دلالية، كما لاحظنا في نحو الكوفيين ونظريات اللغويين والبلاغيين الذين تلوههم.

وإنَّ الدَّعوة إلى تضافر التركيب ومحتواه تظل قائمة ما دامت اللغة عنواناً للتواصل ورمزاً للتفاهم الإنساني. ولم يكن الهدف الذي يسعى إليه المهتمون مقصوراً على ربط رمز بصورة، وليس لكل معنى في الواقع صورة تُستخرج من المعجم أو قائمة التصنيف، فلا بد من اتجاه يربط شكلاً بمعنى، ويخرج عن إطار المُعجمية إلى فضاء الأساليب والمواقف، فمعاني العبارات كمعاني الكلمات يجب أن تُميز بارتباط الشكل بالمعنى. (24).

الهوامش:

- 1 - اتجاهات التحليل اللغوي، أ/د بكري محمد صالح، ص 177
- 2 - Chomsky, Language and Mind, P. 17
- 3 - أنظر علم اللغة في القرن العشرين لجورج مونان - ترجمة نجيب غزاوي.
- 4 - اتجاهات البحث اللساني، ميلكا إيفيتش، ترجمة سعد عبد العزيز مصلوح، وفاء كامل فايد. ص. 377
- 5 - Dale, Language Development, P. 73.
- 6 - المسافة بين التنظير النحوي والتطبيق اللغوي، بحوث في التفكير النحوي والتحليل اللغوي، خليل عمايرة ط/ 2004، ص. 253
- 7 - Chomsky ? Studies in Language P. 31.
- 8 - ينظر المرجع السابق، ص 13-32.
- 9 - نفسه، ص 34-35.
- 10 - النظرية التوليدية التحويلية وأصولها في النحو العربي. خليل عمايرة ص. 249.
- 11 - أنظر أضواء على الدراسات اللغوية، ص. 116.
- 12 - أنظر : Chomsky, Selected Readings, P. 147-148.
- 13 - الألسنية (النظرية الألسنية) ميشال زكريا، ص. 31.
- 14 - ينظر : Chomsky, Syntactic Structures, P. 56.
- 15 - ينظر : نظرية تشومسكي اللغوية لجورج ليونز - ترجمة حلمي خليل، ص. 211 - 213.

- 16- ينظر: علم اللغة في القرن العشرين لجورج مونان، ص 203. - مدخل إلى اللسانيات، إيلدار -
ترجمة بدر الدين قاسم، ص 140
17- ينظر: Dale ? Language and Development, P. 79.
18- نظرية تشوسكي اللغوية. 57.
19L. Bloomfield, Language, P. 140.
20- الاتجاهات المعاصرة في الدراسات اللسانية، أحمد دزاج، ص 218، 219.
21- علم اللسانيات الحديث. مازن الوعر، ص، 54.
22- ينظر المسافة بين التنظير النحوي والتطبيق اللغوي، خليل عمارة، ص، 262.
23- أعضاء على الدراسات اللغوية المعاصرة، ص، 322، 323.
24- ينظر: LYONS, Language and Meanig and Context, P. 41.



